ستائر وردية

قصة بقلم الآنسة سميرة عزام

ابو خليل – تاجر العطارة العتيد الذي تفوح من دكانه في زاوية الحي روائح القرفة والقرنفل والحبهان والحنبة – ذواقة نساء ولكن في الحلال.. فما جمع على ذمته اكثر من اثنتين او ثلاث. اما عدد النسوة اللاتي كان لهن في يوم من الايام حظ الانتساب الى حريمه فقد يتجاوز عشراً... والوحيدة التي لم يسرحها ابو خليل بطلاق اولى زوجاته . ويقولون إنه ابقى عليها اعترافاً بكريم خلقها واكراماً لخاطر ابنه منهـا (محمود) الذي يحبه ويؤثره ... ثم جاءت فترة لم تكن في عصمته من النسوة غيرها فاعتقدنا أنه تاب عن هوايته ، وآثر ان يمضي شيخوخة هادئة لا تفسدهـا خناقات زوجاته ومكائدهن ...

الا امي، فقد ابت ان تصدق ان الرجل يتوب ، فهي تقسم انه لا يكاد يرى امرأة تقطع الحارة الا ويطل برأسه المطربش من باب الحانوت . ثم يتفحصها من الرأس الى الخمص القدم، ويعود بعدها يسرح لحيته القصيرة المخضبة بالحناء باصابع يابسة .. كنا نعرف ابا خليل من دكانه .. وكان جاراً لنا يملك داراً قديمة تلاصق دارنا .. نطل عليها من النافذة الصغيرة التي تتوسط حائط مطبخنا العتيق .. اسكن فيها ذات مرة احدى نسائه ، وكانت لعوباً لا يكاد يخصها ابو خليل بليلة حتى تقوم تشكل رأسها بوردة كبيرة .. تثبتها عند طرف المنديل الملون الذي تعقد به رأسها وتروح ترشق وجهها بالوان من الخضاب .. وما تلبث اصوات نقر الطبلة ان ترتفع فيبلغ خبرها مسامع زوجه ام محمود فتضحـك وتقول : « ما دايم إلا الدايم .. غداً يطلقها .. »

وقد تطول « غداً » شهرين او ثلاثة او سنة .. ولكنها مـا تجاوزت العام قط .. وظل البيت يعمر بالزوجـات ويفرغ .. حتى اشاع الحي بان ابا خليل آثر ان يثيب ام محمود على معروفها فيفرغ لها ولبنيها وبناتها الستة .. ولولدين انجبتهما له زوجتان من زوجـاته .. واحد ما يزال في حضانة امه والآخر انضم الى اسرة ابيه .. يأكل وينام في رحاب ام محمود .. وينتظر مع اخواتـه ان يكون له نصيب من ميراث ابيه ..

غير ان امي ابت ان تصدق قصة توبته .. قالت : « لو كان ابو خليل قد تاب حقاً لكان أجّر الغرفتين وماخلاهما فارغتين احتياطاً للطوارىء.. فنفس الرجل خضراء .. وما زالت له في النساء نظرة » .

وصدقت امي .. كنا يوماً نجلس وبعض جاراتنا على (المصطبة) .. فرأينا شباك الغرفة التي تواجه مطبخنا تفتح .. ورأينا امرأة تنفض الغبار عن دفتي النافذة شبه المخلعتين .. فانتصبت امي على قدميها ولكزت جارتنـا وقالت : « ألم اقل ؟ زوجة جديدة لابي خليل .. »

ووقفنا على اقدامنا نتطلع بكثير من الفضول الى الوجه المطـل من الشباك ... كان وجهاً يابساً لكهلة غطت رأسها بنقاب ابيض ... واستبعدنا ان تكون هي العروس.. فرأي ابي خليل في الزوجات يتمثل في ارداف ثقيلة .. وعيون زجاء وصدر يجب ان يكون عامراً .. ويدين لا بد لابي خليل ان يلونها بحناء يحملها من دكانه ..

وانتشر الخبر في الحي .. وتدلى من كل نافذة رأس امرأة تغمز بعينها لاخرى .. وتصوبت العيون باتجاه بيت ابي خليل حتى اذا جاء في المساء يتوكأ على عصا ويلبس بذلة (الدخلة) كما تسميها نسوة الحي وهي سروال يغطي ساقيه القصيرتين .. وصدرى تتدلى منه سلسلة ساعة ذهبية .. تفوح منه رائحة عطر الورد .. وتلتمع الحناء على لحيته... حتى قطعت شكوكنا باليقين ونصبنا ليلتها اكثر من حلقة سمر نبشنا فيها ماضي ابي خليل وسيرته مع زوجاته الكثيرات .

وانتظرنا طلوع الصباح لهيفات لنستطلع خبر العروس ونعرف اذا كانت بيضاء ام سمراء ، سمينة ام نحيفة ، لعوباً كتلك التي طلقها، ام ساذجة دفعت الى الزواج بأكثر من سبب ؟

وما استرحنا الا حين تحركت الستارة بعد يوم من ليلة العرس واطل وجه ابيض سمين وعينان لم يفلح الكحل في ان يزيد من اتساعهما ، وما لبثت النافذة ان فتحت واطلت المراة برأسها الى الطريق فبدت غضة ما تكاد تبلغ العشرين ، فعضت امي على اسنانها وقالت : « قبحه الله من رجل لا يستحي كلما كبر ازداد جهالة » .

ولما رأتنا المرأة نحملق فيها ابتسمت ابتسامة لا تخلو من غباء وادارت فمها بقطعة من اللبان تمضغها ، ثم توارت وراء الستارة العتيقة ، وما رأيناها الا بعد ثلاثة ايام حين مضى ابو خليل الى شأنه يتدرج صوب دكانه برجليه القصيرتين وكرشه البارز .

وما ان احست نسوة الجوار بخلو الجو حتى قررن ان يعاجلن العروس بزيارة يقصدنها مشوقات فيستمتعن بالقهوة والسجاير ، وتتطوّع كل منهن لتكون لها اختاً وصديقـة ويستطلعن من احوالها ما يكشف عن السر الذي ربط هذه المخلوقة البضة السمينة بهذا العجوز اليابس ويعدن بحكاية يتندرن بها اياماً .

وعدن يقررن بالاجماع ان البنت بنت فقر، والا ما كانت رضيت بأبي خليل تتزوجه على الحصير، ولا يتكلف من امر زيجته ما يتكلفه الازواج، فما في الغرفة اكثر من سرير كان لاربع او خمس زوجات من قبلها، وخزانة متداعية وكراس مخلعة الارجل، وما في ثيابها ما يزهو به رونق عروس .

اجل فقيرة بنت فقير ، والا فما معنى ان تقيم امها معها ؟

وقالت واحدة : « هذه تدابير العجوز امهـا ، زوجته اياها على امل ان يموت فترث ابنتها . »

وقالت غيرها : « ما فكرت صاحبتنا الا في بطنها حين رضيت بان يعقد لها عليه ... الا ترين فمها لا يفتأ يدور كلما اطلت من النافذة ؟؟ » ..

وقالت ثالثة وهي تشدملامتها: « دعكن منها... ما ارى آخرة ابي خليل تكون الا على يدي هذه السمينة الاكول ! »

وضجت الغرفة بضحكات رفيعة ممطوطة .

***

ولا ادري لماذا تذكرت نبوءة المرأة بعد ثلاثة شهور، حين قرع بابنا قرعاً متصلاً وسمعنا ام فهيمة – وفهيمة اسم زوج ابي خليل – تسأل امي عن اقرب اطباء الحي، فابو خليل قد اصيب بازمة في صدره نتيجة ارتفاع ضغط الدم. ودلتها امي على طبيب الناحية فهرولت من فورها تدعوه، وكانت ام فهيمة بعد زيارة لابنتها تفد علينا بين يوم ويوم فتتكوم قريباً من الباب وتدس

يديها في صدرها فتخرج علبة من الصفيح حشتها بالتبغ الناعم وتلف لنفسها سيجارة تخرج من بين اصابعها رخوة تكاد لا تتماسك فتشعلها وتبلع دخانها بتلذذ .

وكنا نسألها لم لا تصحب معها فهيمة فتقول .. : « اعذروها ... زوجها غيور لا يسمح لها بعشرة جارة لئلا تفسد من امرها معه ، فهي قعيدة البيت ما دام هو موجوداً ، وهي ملازمته ايضاً ما دام غائباً خشية ان يبعث بصبي المحل يفتقدها فلا تكون » .. ولما توطدت الالفة بيننا وبين ام فهيمة صار من حق امي ان تسألها لم زوجت ابنتها بهذا الكهل المزواج فقالت : « زيجة البنت ستر لها .. خفت عليها ان تعرى وتجوع واولاد الحرام كثر . » وكانت تبدو على الرجل نعمة فاشترى لها زوجين من الاساور وقرطاً وثلاثة اثواب ودزينة من الصابون المعطر وزوجتها اياه « فان عاش عاشت بخيره .. وان مات اخذت غيره » اليس هذا خيراً لها من شاب يضربها كل ليلة كما كان ابوها يفعل بي » ؟؟

ولم يقف بامي فضولها ، فراحت تسألها عما اذا كانت ابنتها تطمع بميراث فتجهم وجه المرأة قليلاً وقالت .. « والله ما اكتمك يا جارة ان ابنتي حمقاء ما استطاعت ان تأخذ من شفتيه كلمة ، فلو عاجله القضاء لما تركتها (ام محمود) تحصل حقاً او باطلاً من ثروته التي لا ندري اقليلة هي ام كثيرة . والمصيبة انها لم تحمل منه ولم يفلح فيها التداوي ولا حجاب الشيخ بركات الذي كتبه لها .. ابنتي هذه - كأمها - ناقصة بخت . »

ورأينا سحابة اسى تغشى وجه المرأة ..

وكان هذا قبل ان تقرع بابنا تسأل عن طبيب ، ووقع الرجل مريضاً وتأزمت حاله ، وكانت ام محمود توفد ابناً من ابنائها مرة كل نصف ساعة يستطلع حال الرجل وكانت ام فهيمة تهرع الينا مرة كل نصف ساعة تدخن لفافة وتقول .. : « حساب المرايا غير حساب القرايا .. ما كان (الضغط) في بالنا .. لو مات الرجل لشحطتنا ام محمود من الغرفة وما تركتنا نبيت ليلة واحدة ، فالدار كما سمعنا مكتوبة باسمها اذ خصها ابو خليل بها . لقد كنا حمقاوين حين تساهلنا فلم نطلب منه حتى اثاثا مناسباً .. كنت انوي ان ادع فهيمة تطالبه لو لم يعاجله المرض ... »

ولا ادري اكانت امي جادة ام هازلة ، حين اوعزت اليها ان تدفع فهيمة في ساعة صفاء وتطلب اليه ان ينذر امام الله نذراً بأن يملأ غرفتها اثاثاً لو من الله عليه بالشفاء ، الا ان المرأة استطابت الرأي فانبسطت خطوط جبهتها وقالت : « معقول .. فتعلقه بالحياة اقوى من تعلق ابن عشرين » ..

وقامت عنا مهرولة لتعود بعد يومين راضية وتقول . : « كما قلت صار يا جارة ، لقد وعدها ان شفي بسريرين وخزانة جديدة وبذبيحة ينحرها على بابه في عيد الاضحى . »

وشفي الرجل ، لا نعرف كيف : أبمهارة الطبيب ام بشفاعة الاولياء ام بنذور ام فهيمة ؟ وقام الى دكانه ذات صباح ، وهرعت الينا الام تقبض على بعض النقود وقالت إن ابا محمود اعطاها اياها لتشتري ستارة جديدة للنافذة ووعد هو بان يمر بالسوق ويوصي لها على الخزانة والسرير .

ومضت المرأة وعادت بعد قليل تحمل قماشة دفعتها الى امي لتشذب حواشيها وتسويها لها ستارة فلما لبثت ان اختفت الستارة الكالحة المهترئة ولاحت الجديدة وردية مزهوة كخدي فهيمة .

ويوم حمل الأثاث الى البيت عاد ابو خليل في المساء مبكراً وكان يبدو على لحيته انها حديثة عهد بالخضاب .

وتحركت اكثر من عين لاكثر من جارة في غمزات خبيثة ...

ومر اسبوعان كانت تنكشف فيهما الستارة كل صباح ويطل وجه فهيمة المورد وقطعة اللبان تدور في فمها ، فتسألنا عن الحال وتبتسم ابتسامتها التي لا تعني شيئاً .

وفي يوم لم نر فهيمة ، شأننا كل صباح ، بل رأينا امها تمر ببابنا مهرولة في طريقها الى عيادة الطبيب تستدعيه ليعاين ابا خليل .

ومرت المرأة وانتشرت الرؤوس على الشبابيك وعادت الغمزات تتحرك والالسنة تدور وصوت جارة خبيثة تقول بملء فيها « لو مات ابو خليل في هذه المرة ، فمع الف سلامة ، ستارة وردية واثاث جديد لا تدع فهيمة تبقى بلا زوج اكثر من ثلاثة ايام . !! »

سميرة عزام

صدر اليوم

أروع وأضخم وأحدث ما أخرجته المطابع الأوروبية عن سيرة سيد الجزيرة العربية الخافقة بأبهاء البطولة

المغفور له : عبد العزيز آل سعود

تأليف المؤرخ الألماني الكبير : دافيد برنت فون ميكوش

ترجمة الجواد العربي المعروف : الدكتور أمين سويحة

من منشورات : دار المكشوف في بيروت - ص.ب : ٩٩٥ - تلفون : ٣٦٢٧

" الطبعة محدودة ، بادر الى شراء نسختك حالاً . "

صدر حديثاً

ليته لم يعد

مجموعة قصص اجتماعية

بقلم

الياس مقدسي الياس

قدم له الاديب الكبير الاستاذ

سعيد تقي الدين